

اللفظ ومستواه الصوابي من خلال : « موطئة الفصيح » لابن الطيب الشرقي »

بقلم : د. عبد العلي الودغيري
كلية الآداب - الرباط

المقدمة الأولى :

تعريف بـ « موطئة الفصيح »

معانيها الصحيحة كما يستعملها العرب الأقحاح أصحاب اللغة. وهكذا. تعاونت جهود أصحاب القواميس مع جهود النحاة لتأسيس اللغة الفصحى أي اللغة النموذجية.

ولكن هذه الجهود جميعها لم تستطع إيقاف زحف التغير والتطور اليومي لحياة اللغة العربية التي لم تعد لغة العرب وحدهم، بل أصبحت أيضا لغة لجميع الأجناس البشرية الأعجمية الداخلة تحت لواء الإسلام إذ استظلت بهذا اللواء امبراطورية واسعة الأرجاء، ولا سيما أنه أريد للغة العربية أن تظل لغة جميع المستويات : مستوى الدولة وشؤون الإدارة، ومستوى التعليم والفكر والثقافة، ومستوى المعاملات

برزت قضية اللحن بصورة جدية باعتبارها مشكلا يحتاج إلى حل في تاريخ اللغة العربية منذ عصر أبي الأسود الدؤلي، وإن لم يخل العصر السابق لذلك من ملاحظة بعض أعراض هذه الظاهرة.

وقد حاول أبو الأسود وتلاميذه من بعده محاصرة اللحن بما وضعوه من أسس لقواعد النحو وضوابط لاصلاح الخط العربي باكتشاف نقط الاعجام وحركات الشكل. وتوجت هذه الجهود في نهاية الأمر بظهور القاموس اللغوي العربي الشامل لأول مرة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، فوضع بين أيدي متعلمي العربية على اختلاف مستوياتهم قائمة الألفاظ الفصيحة المستعملة في

(هـ) هو أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي (أو الشركي) الصبلي القاسمي (1110 - 1170 هـ) أشهر اللغويين والمعجمين المغاربة في عصره، له مؤلفات في مختلف العلوم تزيد عن الستين كتابا ورسالة منها : الحاشية على القاموس المحيط، وشرح الاقتراح في أصول النحو للسيوطي، وشرح كفاية التحفظ في اللغة لابن الأجداني، وموطئة الفصيح لموطئة الفصيح..

وهذه الدراسة عبارة عن قسم صغير من الأطروحة الجامعية التي تقدمت بها لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية من جامعة محمد الخامس (الرباط) تحت عنوان : (ابن الطيب الشركي : حلقة في تاريخ الفكر اللغوي بالمغرب).

العادية في حياة الناس. ولذلك كان من الطبيعي ألا تحافظ اللغة التهجوية على صورتها الصافية النقية في جميع المستويات والبيئات والأعصار، بل إن لغة المثقفين نفسها التي تمثل المستوى الرفيع لاستخدام الفصحى — وقد أصبحت تكتسب بالتعلم — لم تكن لتسلم من الأخطاء في كثير من الأحيان.

ومنذ القرن الثاني الهجري بدأ يظهر في تاريخ التأليف اللغوي عند العرب نوع من الكتب يهتم بتصحيح هذه الأخطاء التي تلاحظ في لغة العامة والخاصة من المثقفين، وقد امتدت هذه الحركة أحيانا لتتناول لغة عامة العامة أو خاصة الخاصة. وانطلاقا من تلك الفترة وامتدادا عبر التاريخ إلى أيامنا هذه، لم تنقطع حركة التصحيح اللغوي عن أداء مهمتها، ولم تتوقف عن مدنا بالكتب والرسائل التي تعالج مشكلتي الفصحى واللحن. ولقد اهتم بعض الدارسين المحدثين بتتبع آثار وأعمال هذه الحركة منذ العهد الأول، وخرجوا بقوائم طويلة فيها أسماء مؤلفات القوم بشرق العالم الاسلامي وغربه، فأغنانا ذلك عن إعادة البحث في الموضوع (1). ولكن الذي يهمنا أن نبرزه هنا على الخصوص هو ما أسهم به في مسار هذه الحركة علماء نسبوا للمغرب الأقصى، سواء ممن ولدوا فيه واستقروا، أم ممن هاجروا إليه واستقروا

كذلك. وهو إسهام ليس بالهين كما سنرى.

1. فأول من يعرف له تأليف في الموضوع — حسب ما أعلم — هو أبو العباس أحمد بن عبد الجليل التدميري الأندلسي الأصل الفاسي الدار والوفاة (ت 555 هـ) (2) فقد ذكر له مترجموه اسم شرح على فصيح ثعلب وهو (التصريح لشرح غريب الفصح) (3).

2. وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي ثم السبتي (كان حيا سنة 557 هـ) (4) من أشهر المشتغلين بقضية التصويب اللغوي. فهو صاحب الكتاب المسمى : (المدخل إلى تقويم اللسان) الذي تم الآن نشره كاملا على مراحل بتعاون أربعة من الباحثين العرب (5). وهو يهتم بلغة العامة في الأندلس والغرب الاسلامي بصفة عامة.

3. ولابن هشام هذا أيضا كتاب آخر وهو : (شرح الفصح) لأبي العباس ثعلب، حققه أخيرا الدكتور حاتم الضامن (6). ويهتم فيه صاحبه بالاضافة للشرح، ببعض ظواهر اللغة العامية في زمانه.

- (1) انظر قوائم هذه المؤلفات في : بروكلمان : 211/2 وما بعدها (ط. عربية) — نحن العوام والتطور اللغوي لرمضان عبد التواب ص 66، وما بعدها — لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة لعبد العزيز مطر ص : 57 — حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث محمد ضاري حمادي. ص 21 وما بعدها.
- (2) ترجمته في : الوعاة : 321/1 — التكملة لابن الأبار : 65/1، (ط. الحسيني) — جنوة ابن القاضي : 138/1 — الأعلام للمراكشي : 68/2.
- (3) مخطوط بكتبة نور انعمانية بتركيا رقم : 3992 (بروكلمان : 211/2).
- (4) من مصادر ترجمته : البنية للفيروزبادي : ص 209 — الوعاة : 48/1 — بروكلمان : 347/5 — الأعلام للزركلي : 212/6 — معجم المؤلفين : 26/9.
- (5) نشر قسم منه سنة 1962 بعنوان (باب ما تمثلت به العامة مما وقع في أشعار المتقدمين) باعتناء د. عبد العزيز الأهواني ضمن كتاب : (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين).
- ثم نشر قسم ثان سنة 1966 بعنوان : (الرد على أبي بكر الزبيدي في لحن العامة) باعتناء د. عبد العزيز مطر (مجلة معهد المخطوطات العربية. ج 2 مجلد 12 سنة 1966).
- وفي سنة 1973 نشر بالقاهرة قسم ثالث بعنوان : (الرد على ابن مكّي في تنقيف اللسان) باعتناء د. عبد العزيز مطر أيضا.
- وأخيرا نشر د. حاتم الضامن من العراق الأبواب الثلاثة المتبقية منه سلسلة في مجلة (المورد) ابتداء من ع 2 م 10 س : 1981. وبذلك تم اخراج الكتاب كاملا.
- (6) أشار هذا الباحث في مجلة (المورد) ع 2 مجلد 10 س : 1981 إلى أنه انتهى من تحقيقه. وتوجد منه نسخة خطية بالخرانة الحسينية بالرباط رقم : 1944 وأخرى تحت رقم : 7539.

المختصر نفسه في كتاب قام بنشره المستشرق الفرنسي
(كولان) بمجلة (هسبريس) (10).

8. ولمحمد الصغير بن محمد الافراني (أو
اليفرني) المتوفى بعد 1150 هـ صاحب (روضة
التعريف) (11) رسالة في نوع خاص من اللحن وهو
اللحن الذي يقع في الحديث النبوي الشريف،
سماهما : (فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث) (12)
تقع في 15 صفحة، والغرض من الكتابة في هذا
الموضوع — كما يشرح في المقدمة — هو اجابة
السائل الذي يسأل : هل هنالك رخصة يترخص بها
لمن يلحن في حديث نبوي ولا سيما إذا كان لا يتقن
العربية ؟ ولذلك قسمت الرسالة إلى مقدمة وخاتمة
وثلاثة فصول. فتحدث في المقدمة عن معنى اللحن
في اللغة والفرق بينه وبين التصحيف والتحريف،
وتحدث في الفصل الأول عن تقسيم أنواع اللحن
الذي يقع في الحديث النبوي. وفي الثاني عن حكم
اللاحن فيه. وفي الثالث عن رخص من العلماء
باللحن في الحديث، وجعل الخاتمة للجواب عن بعض
الاشكالات الواردة حول كيفية قراءة الحديث.

9. ولمحمد بن الطيب الشرقي عملان معروفان
في الموضوع : أولهما : (شرح درة الغواص
للحريري) وقد أوجزنا الحديث عنه في القسم الأول
من رسالتنا هذه.

10. وثانيهما : شرح لمنظومة ابن المرحل
المسماة (موطأة الفصيح) الأتفة الذكر. وهذا الشرح

4. ولابي الحكم مالك بن المرحل السبتي (ت
699 هـ) الذي — سوف نتحدث عنه فيما بعد —
اهتمام واسع بهذا النوع من الموضوعات، إذ ذكر له
مترجموه من التأليف : (نظم اختصار اصلاح
المنطق) (7).

5. ونظم الثلث الأول من كتاب (أدب
الكاتب) لابن قتيبة بعد ترتيبه. وهذان كتابان لا
نعرف عنهما سوى أنهما مذكوران ضمن مؤلفاته
الأخرى عند من ترجم له.

6. وستحدث عن (موطأة الفصيح) التي
شرحها ابن الطيب الشرقي وهي منظومة في حوالي
1500 بيت لكتاب ثعلب.

7. ولأبي عبد الله محمد بن علي بن هانيء
اللخمي السبتي (ت 733 هـ) (8) ترتيب واختصار
لكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام الأنف
ذكره، سماه السيوطي : (لحن العامة) في بغية الوعاة.
وهذا الكتاب هو المعروف بـ (انشاد الضوال
وارشاد السؤل) ويعتقد لحد الآن أنه مفقود. وقد
قام باختصاره الشاعر الأديب اللغوي الأندلسي أبو
جعفر أحمد بن علي ابن محمد بن خاتمة الأنصاري
(ت 770 هـ) (9) في كتاب آخر بعنوان : (ايراد
الآل من إنشاد الضوال وارشاد السؤل) وتوجد من
هذا المختصر نسخة خطية بالخرزانة العامة بالرباط تحت
رقم (1248 ج). ثم اختصر شخص مجهول هذا

(7) (مختصر إصلاح المنطق) الذي شرحه ابن المرحل هو من عمل أبي القاسم الحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي (ولد سنة 370 هـ). وهو الكتاب
الذي أهدي للمعري فأجاب عنه برسالة الاغريطي. (انظر : وفیات الأعيان : 172/2 — برنامج الوادياشي : ص 139 في ترجمة ابن المرحل).
وقد يصحف (ابن المغربي) في بعض الكتب إلى (ابن العربي).

(8) من مصادر ومراجع ترجمته : بلغة الأمانة : 23 — بغية الوعاة : 192/1 — بروكلمان : 348/5.

(9) ترجمته في : الاحاطة : 239/1.

(10) مجلة هسبريس (HESPERIS) م 12 ص 1931. وانظر : لحن العامة والتطور اللغوي (ص 274) للدكتور رمضان عبد التواب. وفيه نقى وجود
كتاب ابن خاتمة عكس ما ذكرنا، ولعل السبب أنه لم يطلع على نسخة الرباط.

(11) انظر ترجمته في : النقاط الدرر : ص 438 — دليل مؤرخ المغرب الأقصى 152/1 — معجم المحدثين لابن عبد الله ص 36.

(12) منها نسخة خطية بالخرزانة العامة بالرباط محفوظة تحت رقم : 88 ج ضمن مجموع من ص 144 إلى ص 159.

هو المسمى : (موظة الفصحى لموظة الفصحى). وهو موضوع كلامنا في هذا الباب.

11. ولأبي حفص حمدون بن عبد الرحمان بن الحاج السلمي الفاسي (ت 1232 هـ) (13) : (شرح على نظم ابن المرحل لفصحى ثعلب) ذكره له ولده محمد الطالب ابن الحاج (ت 1274 هـ) في كتابته المخطوطة (14) في جملة مؤلفاته. وقال عنه إنه « لم يكمل ».

12. ونسب الدكتور محمد ابن شقرون لأبي بكر الشريف الحسنى الادريسي السبتي (15) (ت 809 هـ) (نظم فصحى ثعلب و شرحه) وقال انه مخطوط بالخزانة العامة بالرباط (16). ولم أقف عليه.

فصحى ثعلب :

تبين من هذه القائمة التي استطعنا جمعها من المؤلفات والأعمال التي أسهم بها المغاربة في حركة التصويب اللغوي، أن القسط الأكبر منها كان يدور حول كتاب (اختيار الفصحى) (17) لأبي العباس ثعلب (ت 291 هـ) وإما بشرحه وإما بنظمه أو شرح نظمه.

والتأمل في الحركة التصويبية منذ ظهور بواكيرها يجد أنها سارت في اتجاهين اثنين : اتجاه ينطلق من جمع طائفة من الأخطاء الشائعة في استعمال الخواص أو العوام من المثقفين وغيرهم

والعمل على تصحيحها وردها إلى أصلها الفصحى والتنبيه على الوجوه السليمة للاستعمال، وأحسن الأمثلة التي وصلت إلينا من كتب هذا الاتجاه : كتاب (لحن العوام) لأبي بكر الزبيدي و (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام السبتي، و (تقويم اللسان) لابن الجوزي و (درة الخواص في أوهام الخواص) للحريري.

وأما الاتجاه الثاني فكان يريد الوصول إلى الغاية نفسها التي يجري وراءها الاتجاه الأول ولكن بطريقة معاكسة : فهو لا ينطلق من الاستعمال الفاسد ليصل إلى الصواب، بل ينطلق من الصواب ليصل إلى تصحيح الفاسد، فهو يضع المثال الذي « يصل به قارئه إلى علم جميع ما تلحن فيه العامة » كما يقول ابن درستويه (18). وأبو العباس ثعلب يقول في خاتمة كتابه الذي يعد من نماذج هذا الاتجاه: « هذا كتاب اختصرناه وأقلناه لتخف المؤنة فيه على متعلمه الصغير والكبير وليعرف به فصحى الكلام ». فالذين اختاروا هذا المسلك في تعلم العربية الجيدة — وهو المسلك الذي تؤيده الطرق التربوية الحديثة — كابن السكيت (ت 244 هـ) في (اصلاح المنطق) وأبي عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب (ت 345 هـ) في (فائت الفصحى) بالإضافة لثعلب نفسه والجماعة الأخرى التي سارت على نهجه، آثروا أن يضعوا بين أيدي الناس منتخبات من الكلام العربي الفصحى الذي تشتد الحاجة إليه، وعن طريق حفظه

(13) انظر ترجمته في : النبوغ : 296/1 — دليل مؤرخ المغرب الأقصى : 214/1 — معجم المحدثين لابن عبد الله ص 19. وقد ذكر أنه توفي سنة 1239 هـ وترجم له مؤرخا الأستاذ أحمد العراقي في مقدمة تحقيقه لديوانه المسمى (الترافع الغالية في الأمداح السليمانية) وقد قدم هذا التحقيق لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بفاس (1981 م).

(14) كفاشة محمد الطالب ابن الحاج مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم : 2875 ز. اللوحة 14.

(15) ترجمته في : بنفة الأمانة ص : 49.

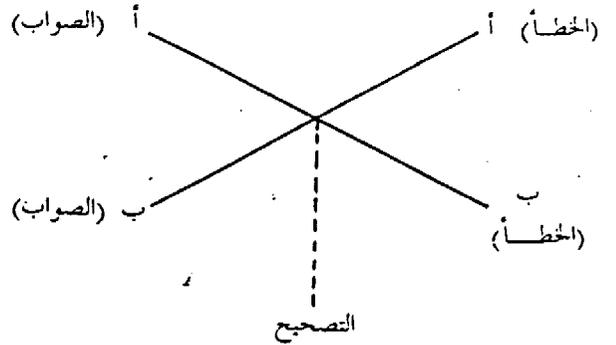
(16) انظر مظاهر الثقافة المغربية ص : 209. وقد أخبرني فيما بعد أنه وقف عليه ضمن المخطوطات المقدمة لجائزة الحسن الثاني.

(17) نشر الكتاب لأول مرة في ليلسك سنة 1876 م بعناية المستشرق (Von. j. Barth). وطبع في مجموعة الطرف الأدبية لطلاب العلوم العربية بمصر عام 1325 هـ. ثم طبع طبعات أخرى مع بعض شروحه. ومن نسخة الخطبة بالمغرب نسخة الخزانة الحسنية بالرباط رقم : 841 وهي برواية أبي علي القتالي عن المنطري ونظويه وابن الأنباري، ونسخة الخزانة الفصحى بسلا برواية أبي موسى الجزولي رقم : 293. هذا وقد قام السيد عاطف سيد حسن مذكور بتحقيقه ودراسته وتقديمه به لنيل الماجستير من كلية آداب القاهرة سنة 1974.

(18) انظر مقدمة (فصحى ثعلب).

والعلم به يصل المرء إلى اصلاح لسانه وخطئه.

ومهما يكن فإن الاتجاهان معا يلتقيان في نقطة تماس واحدة وهي : اصلاح المنطق وتصويب الاستعمال، وتوجيه المتكلم والكاتب، وذلك على نحو ما يوضحه الرسم التقريبي التالي :



وقد احتل كتاب ثعلب الذي قلنا انه يمثل واحدا من الاتجاهين المذكورين، مكانة مرموقة، ومنزلة عظيمة بين طلبة العربية وشذاتها، حتى أصبح في مقام (الكتاب المدرسي) الأول بين كتب تعليم اللغة في شرق العالم العربي وغربه. وقد نوه به ابن درستويه فقال : « قد بلغ الغاية من البراعة وجاوز النهاية في التأدب. ومن لم يحفظه فهو مقصر (19) على كل غرض ومنحط عن كل شرف (20) ». وقال أبو سهل محمد بن علي الهروي : ان « جمهور الناس الذين يؤدبون أولادهم ومن يعنون بأمرهم يحفظونهم كتاب الفصيح المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب رحمه الله تعالى قبل غيره من

(19) كذا. وفي القواميس : قصر عن كذا.

(20) مقدمة (تصحيح الفصيح).

(21) انظر مقدمة (التلويح في شرح الفصيح) للهروي.

(22) مما تجدر الإشارة إليه هنا أن النسخة المحفوظة بالخزانة الصحيحة بسلا من كتاب (اختيار الفصيح) تحت رقم : 293 مجموع. تحتفظ بسند قديم من أسانيد المغاربة في رواية الكتاب، وهو سند العلامة النحوي المغربي أبي موسى الجزولي (ت : 606 أو 607 هـ) الذي يتصل بسند شيخه النفري الشهير أبي محمد عبد الله بن بري، صاحب حواشي الصحاح، وهذا نص السند : « أخبرنا أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار ابن بري المقدسي - [و] قرأته [عليه] - عن أبي طالب عبد الجبار بن محمد الماعري عن الحافظ أبي الحسن سعيد الخير محمد بن محمد بن سهل الأنصاري عن أبي سعيد محمد بن محمد المطرزي الأصبهاني عن أبي الحسن علي بن كيسان قال : قال أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار النحوي - وقرأته عليه - هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يبري في كلام الناس... ».

(23) مقدمة (تصحيح الفصيح).

كتب اللغة، لما فيه من الألفاظ السهلة المستعملة، ولأن العامة تخطيء في كثير منها (21)». فقد كان حسن اختصاره الذي يسهل حفظه، واختياره لأبسط العبارات التي قد تكون مظنة الخطأ في الاستعمال الشائع، هما من أسباب شهرته ومكانته لا عند المشاركة وحدهم بل عند المغاربة أيضا كما بينا من قبل (22).

إلا أن الاهتمام بهذا الكتاب لم يكن دائما مصدره نظرة الرضى والارتياح، بل أحيانا كان الاهتمام به نتيجة ما لوحظ فيه من نقص وما اعتوره من عيوب. فابن درستويه الذي قال فيه تلك الشهادة الثمينة هو نفسه الذي تصدى لتصحيح أخطاء ثعلب وانتقاد منهجه حتى إنه جعل عنوان كتابه : (تصحيح الفصيح)، ومما قاله في انتقاده : « ثم كان مما أغفله منه أيضا أنه لم يفسر ما ذكره فيه من الغريب ولم يوضح معانيه واعرابه، فاحتاج من تحفظه إلى التعب في السؤال عن ذلك » (23). ومثل ذلك أيضا قال أبو سهل الهروي بعد شهادته السابقة : « وكان قد عرّى أكثر فصوله من التفسير ». فكثير من العلماء قد لاحظوا أن شدة اختصار الكتاب أدت إلى إهمال تفسير ما فيه من ألفاظ غريبة، كما لاحظوا خلوه من الشواهد إلا ما ندر واقتصره على أوجه معينة من فصاحة اللفظ وإهمال وجوه أخرى، فضلا عن إهمال كلمات يكثر استعمالها ويكثر بالتالي خطأ العامة فيها. وهذا ما دفع أبا عمر الزاهد إلى وضع كتابه الذي سماه : (فائت الفصيح) مستدركا ما فات شيخه أبا

العباس. ودفع البغدادي إلى تأليف ما سماه : (ذيل الفصيح). وفعل مثلهما آخرون. فأضافوا واستدركوا ونهبوا وحققوا وشرحوا (24).

منظومة ابن المرحل :

يعتبر أبو الحكم مالك بن عبد الرحمان بن علي الشهير بابن المرحل السبتي (27) (604 - 699 هـ) من أبرز شعراء وأدباء المغرب الأقصى في العصر المريني، وله بالإضافة إلى الإبداع الشعري ولع بنظم الكتب العلمية في مطولات وأراجيز كثيرة، وإلى جانب اهتمامه الأدبي، له مشاركة في بعض العلوم ولا سيما العربية. وهو معدود ضمن تلاميذ أبي علي الشلوبين النحوي الأندلسي الشهير. ومن تتلمذ عليه أبو حيان النحوي وأبو العباس المقرئ صاحب الأزهار. وليس المقام هنا مقام التعريف به مطولاً، ولا مقام الحديث عن مؤلفاته الكثيرة، فهي مذكورة في مصادر ترجمته التي أحلنا عليها، وإنما يهمنا أن نتوقف قليلاً عند أرجوزته المنظومة التي سماها : (موطأة الفصيح) (28) — بضم الميم وفتح الواو والطاء المشددة — وأولها :

على أن أخطر ما وجه لكتاب ثعلب من النقد هو ما جاء به أبو إسحاق الزجاج الذي خطاه في مسائل عديدة في مناظرة شهيرة جرت بينه وبين المؤلف حتى قيل بعدها إن أبا العباس أصبح ينكر نسبة الكتاب إليه وأنه لم يؤخذ عنه بعد ذلك (25). وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك فرغم أن الكتاب من تأليف الحسن بن داود الرقي فأغار عليه ثعلب وادعاه لنفسه، أو أنه مسروق من إصلاح المنطق لابن السكيت (26). وقد كان ابن درستويه ينتقد بشدة بعض المعايير التي استعملها صاحب (الفصيح) في اختياره الأوجه التي اختارها من كلام العرب. وهو ما ستحدث عنه في موضع آخر من الباب التالي من هذا القسم. ولكن هذا وغيره مما اعتقده الناس في كتاب ثعلب لم يقف في وجه انتشاره بل ربما كان عاملاً مساعداً على ذبوع صيته ونفاق بضاعته عكس ما أرادته المنتقدون.

حمد الاله واجب لذاته

وشكره على علاته

(24) انظر طائفة من هذه الشروح وغيرها حول كتاب ثعلب في كشف الظنون : 1272/2. وبروكلمان : 211/2.

(25) انظر (الأشياء والنظائر) في النحو للسيوطي : 206/4 وما بعدها.

(26) انظر بروكلمان : 211/2.

(27) انظر من مصادر ومراجع ترجمته — القسم الثاني من صلة الصلة لابن الزبير (قسم الغرائب) الذي نشره د. محمد ابن شريفه بآخر القسم الثاني من السفر الثامن من الذيل والتكملة ص : 527 — برنامج الوادي آشي : 139 — الاطاعة : 480/1 — غاية النهاية في طبقات القراء : 36/2 — بغية الوعاة : 271/2 — جذوة الاقتباس : 327/1 — أزهار الرياض : 346/4 — 62/5 — وقد ترجم له ابن الطيب الشرقي في آخر (موطأة الفصيح) ترجمة موسعة جعلها وارد عند ابن القاضي في الجذوة — وانظر : الاكليل القادري : 52 — وسلوة الأنفاس : 99/3 — النبوغ : 197/1 — مالك ابن المرحل لعبد الله كتون — مظاهر الثقافة المغربية : 59 — الدراسات اللغوية بالأندلس للطيار : 142.

(28) طبعت هذه المنظومة بالمطبعة الفاسية ضمن مجموع المترن العلمية، ومنها نسخ خطية متعددة بمخزائن المغرب منها نسخ الخزنة الحسنية ذات الأرقام : 10298 — 841 — 6031 — 6618 — 1625 — 7425 — ونسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم : 1037 د وأخرى رقم : 1639 د. ونسخة بالخزانة الصيحية بسلا رقم : 3911. هذا فضلاً عن النسخ الأخرى الموجودة خارج المغرب كنسخة الظاهرية رقم : 7625 (مجموع) ونسخة القاهرة التي ذكرها بروكلمان (210/2) تحت رقم ثاني : 212/2. وقد ذكر صاحب (توادر المخطوطات العربية في مكبات تركيا) مجلد 1 ص 179 أن لابن المرحل منظومة مخطوطة بمكتبة نور عثمانية بمدينة اسطنبول تحت رقم : 4485 وذكر أن عنوانها (الصيح في نظم الفصيح) وأن أولها :

وشكره على علاته

حمد الاله واجب لذاته

فعلم بذلك أنها هي (موطأة الفصيح) التي نتحدث عنها.

وقال ابن المرحل ناظما وشارحا لهذا الكلام :

قَدْ قَضَيْتَ شَعِيرَهَا الْحَمِيرُ
أَي أَكَلْتِ، وَأَكَلَهَا تَمِيرُ
وَأَصْلُ ذَلِكَ الْأَكْلُ بِالْمَقْسَمِ
وَالشَّفَتَيْنِ وَبِأَسْنَانِ الْقَمِ
وَالْحَضْمِ أَكَلَ الشَّيْءَ بِالْأَضْرَاسِ
وَالْقَمِ أَجْعَ كَسَاكِلِ النَّاسِ
وَقَدْ بَلَعْتَ وَسَرَطْتَ مِثْلَهُ
لَكِنَّهُ فِيمَا يَلِينُ أَكَلَهُ
وَقَدْ زَرَدْتَ مِثْلَهُ فِي سُرْعَةٍ
وَقَدْ لَقِمْتَ لَسْتِ تَعْنِي بَلَعَهُ
وَقَدْ جَرَعْتَ جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ
بَلَعْتَهَا كَذَلِكَ فِي الصَّبِيَاءِ
وَقَدْ مَسَّتْ : وَهِيَ لَسٌ بِالْيَدِ
وَقَدْ شِمْتَ رِيحَهُ مِنْ بَعْدِ
وَقَدْ عَضَّتْ أَي شَدَدَتْ بِفَمِ
أَوْ يَدِ أَوْ بِوَاهَا فَاعْلَمْ

فأنت ترى أنه شرح عشرة ألفاظ ونظمها في ثمانية أبيات، وأن هذا الشرح قاموسي ترادفي في الغالب، على أنه قد يضطر أحيانا إلى تضمين بعض الشواهد الشعرية الواردة في كتاب (الفصيح) مع تغيير ما تقتضيه الضرورة في الأبيات المضمنة. ومثال ذلك نظمه لهذه الفقرة من كلام ثعلب التي يقول فيها : « وَزَكَيْتُ مِنْكَ كَذَا وَكَذَا أَرْكَنُ : أَي عَلِمْتُ. وينشد هذا البيت :

وَلَنْ يَرَا جِعَ قَلْبِي حُبَّهُمْ أَبَدًا
زَكَيْتُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِثْلَ الَّذِي زَكَّوْا،

فقد نظمها ابن المرحل مع تضمين البيت الشاهد فقال :

وهي في الواقع ليست مجرد نظم لكتاب ثعلب، إذ تضمنت أيضا بعض الشرح لكثير من مفرداته. وقد ألم الناظم في الأبيات الأولى بذكر ما صنعه في أرجوزته فقال :

وبعد هذا، فسرى في خاطري
من غير رأي نادب أو آمر
أن أنظم (الفصيح) في سلوك
من رجز مهذب مبيوك
وبعض ما لا بد من تفسيره
وشرحه والقول في تقديره
من غير أن أعدو (29) ذاك المعنى
واللفظ إلا لا اضطرار عتيا
فالمرء قد تنابته الضرورة
فصيح النفس بها مقهورة

فهو يذكر أنه سوف يفسر ما لا بد من تفسيره مع اختصار لا يتجاوز به المعنى واللفظ المذكورين إلا نادرا. أي أنه لن يتجاوز ما نص عليه ثعلب من أوجه الفصيح في لفظ من الألفاظ ولن يتوسع بالخوض في الأقوال والخلافات إلا عند الضرورة. ولنقارن مقارنة بسيطة سريعة بين قطعة نثرية من كتاب ثعلب وبين ما يقابلها في منظومة ابن المرحل لنلمس الطريقة المختصرة التي استعملها الناظم في الشرح :

يقول صاحب (الفصيح) في (باب فعلت بكسر العين) :

« تقول : قَضَيْتَ الدَابَّةَ شَعِيرَهَا تَقْضِمُهُ قَضَمًا، وَكَذَلِكَ يَلْعَتُ الشَّيْءَ أْبْلَعَهُ، وَسَرَطَهُ أَسْرَطَهُ، وَزَرَدْتَهُ أَرْزَدَهُ. وَلَقِمْتَ الْقَمَّ، وَجَرَعْتَ الْمَاءَ أَجْرَعَهُ، وَمَسَيْتَ الشَّيْءَ أَمَسَ، وَشِمْتَ أَسْمَ، وَعَضَيْتَ أَعْضَ، وَغَضَصْتَ أَعْصَ... »

(29) وفي بعض النسخ : (أعزو).

فصيح ثعلب لمالك بن المرحل. فكنت كلما مر بي
ذكر الحرام أو الاحرام أضرم نار الأشواق بين الجوانح
غاية الاضرار...» ثم أورد قطعة شعرية مما تضمنته
الموطئة في البوح بهذا الشوق أولها :

ألا ليت شعري هل أرى البيت معلما؟
وهل أريدن يوما على الري زمزما (31)؟

— وذكر في موضع ثان قصيدة صاحبه أبي
العباس البكوري التي مدحه بها وهو راحل لأداء
الحج، وقد تضمنت خمسة أبيات فيها أسماء بعض
مؤلفاته منها هذا البيت :

سلوه على (نظم الفصيح) لتعجب
يريكم له شرحا به الشرق بمنجمل (32)

فعلق ابن الطيب على تلك الأبيات بقوله :

« قلت : في قوله : (سلوه الأبيات
الخمسة...) تلميح إلى ذكر بعض مؤلفاتي، وتلويح
بشيء من مصنفاتي. فأشار بالبيت الأول إلى شرحي
لنظم مالك ابن المرحل الذي لبس من حلال البلاغة
كل وشي مُرَحَّل. وهو شرح حافل سميته : (موطئة
الفصيح لموطأة الفصيح). وقد بالغ أصحابنا في الثناء
عليه من الآداب ما هو جائز نسبته إليه. وسيأتي
بعض أقوالهم البديعة الرائقة في مدح ذلك الكتاب
والثناء على معانيه الفائقة (33) ».

وفعلا لقد تحدث ابن الطيب في مواضع
متفرقة من رحلته عن قرظ الكتاب وأثنى عليه من
علماء المشرق والمغرب، ونحن أشرنا لذلك في ثنايا
القسم الأول من هذا البحث. فقد قرظه : أبو عبد

وقد زكنت أي ظننت ظنا
وقيل عُنُثُ، وقيل المعنى :
علمت، ثم أنشدوا يا صاحبي
يتا روره لأبن أم صاحب : (30)
يقول لي قوم تل بعدهم
ولن يراجع الفؤاد ودهم
زكنت من أمرهم ما زكوا
فأمرهم مثل أمري يُين.

شرح ابن الطيب :

هذه المنظومة المُرَحَّلِيَّة اذن هي التي قام ابن
الطيب الشرقي بشرحها في كتاب ضخيم عنوانه :
(موطئة الفصيح لموطأة الفصيح). وكان هو أول
شرح يوضع عليها، وبعده وضع حمدون ابن الحاج
شرحا آخر على نحو ما مر لكنه لم يصل إلينا.

وليس في النسخ الخطية الموجودة من هذا
الكتاب الذي لم يطبع بعد — كأغلب آثار ابن
الطيب — ما يدلنا على تاريخ تأليفه بكيفية مضبوطة،
إلا أنه من الثابت أن المؤلف قد حمه معه خلال
رحلته الأولى التي قام بها إلى المشرق بقصد الحج سنة
1139 هـ. مما يدل صراحة على أنه ألف قبل هذا
التاريخ.

وفي الرحلة التي كتبها ابن الطيب بعد عودته
من الحج يتردد ذكر (الموطئة) في كثير من
المناسبات :

— فقد ذكرها مرة وهو يتحدث عن شوقه
لزياره الحرمين الشريفين فقال : « وكان هيجان
شديد شوقي الذي لا يُنحَلُّ، وروجان قديد توقي
الذي لا يُنحى نحوه ولا يُنحَلُّ، زمن شرحي لنظم

(30) المقصود هو : تعجب بن أم صاحب الفزاري.

(31) الرحلة : ل : 20.

(32) نفسه : ل : 27.

(33) نفسه : ل : 27.

في كل صفحة 25 سطرا. وخطها مغربي جيد إلا أنها كثيرة البياض ولا سيما في الصفحات الأولى، وأهم من ذلك أنها ناقصة. فهي عبارة عن الجزء الأول تنتهي بشرح (باب ما أوله المضموم).

2. نسخة خاصة في ملك الأستاذ محمد المنوني (ضمن مجموع) وقد تفضل مشكورا فأعارها إلي لمدة. وهي عبارة عن قطعة من أول الكتاب في تسعين ورقة من القطع المتوسط، وتنتهي بشرح (باب فعلت بكسر العين) وهو الباب الثاني من أبواب الأصل المشروح.

من خصائص هذه النسخة أنها مكتوبة بخط مغربي دقيق هو خط العلامة صالح بن محمد الغلاني (ت 1218 هـ) وأنها سالمة من البياض.

3. نسخة دار الكتب المصرية رقم : 5010 هـ في 340 ورقة. وهي عبارة عن الجزء الأول ينتهي عند أول (باب المفتوح من الأسماء)،

من خصائص هذه النسخة أنها مكتوبة بخط رفيق ابن الطيب في رحلة الحج وتلميذه محمد بن الخياط ابن جيعة الفاسي في أوائل رمضان من سنة 1144 هـ (42). فهي على هذا أقدم النسخ الموجودة.

4. نسخة أخرى بدار الكتب المصرية رقم : 179 وهي عبارة عن الجزء الأول (43).

5. نسخة أخرى بدار الكتب المصرية رقم : (15 ش) مكتوبة بخط علي بن محمد الجزائري سنة

الله محمد بن عبد الله الفيلاي نزيل الحرمين وكتب عليه نحو من خمس أوراق (34)، وأبو زيد القاضي عبد الرحمان المالكي المحلي المصري (35)، وأبو العباس أحمد العماوي المالكي الأزهري (36)، وأبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الأصرم الذي لقيه بالديار الليبية (37). واعتناء ابن الطيب بتقريظات هؤلاء العلماء وغيرهم دليل على اعتزازه بالكتاب وتفاخره بما صنعه فيه، ولذلك فقد حمله معه إلى المشرق في رحلة حجه، وغايته أن يعرف بنفسه من خلاله. فالكتاب خير من يعرف بصاحبه كما يقال.

ولم يهتم الرجل بذكر كتابه في (الرحلة) دون سواه، بل كان أيضا يحيل عليه في بقية مؤلفاته كشرح الكفاية (38) وفيض الانشراح (39) والعقود النظمية (40) واطاعة الراموس (41) وغيرها. إلا أن الناس مع ذلك لم يولوه في القديم ولا في الحديث من العناية ما كان يتمناه له صاحبه، وهو في الحقيقة أهل لكل عناية واهتمام، وحبذا لو وجد من يعمل على تحقيقه ونشره.

مخطوطاته :

توجد من هذا الكتاب حسب علمي النسخ الخطية التالية :

1. نسخة الخزنة الزيدانية الموجودة حاليا ضمن محتويات الخزنة الحسينية بالرباط تحت رقم : (1563 ز). وهي في 559 صفحة من القطع الكبير.

(34) نفسه : ل : 91.

(35) نفسه : ل : 116.

(36) نفسه : ل : 117.

(37) نفسه : ل : 124.

(38) انظر ص : 2 - 3 - 6 ؛ 21 - 24 - 26 - 28.

(39) انظر ص : 4 - 10 - 48 - 50 منه.

(40) انظر ص : 93 - 100 - 103 - 109 منه. (مخطوط تطوان).

(41) انظر : 16/1 - 218 - 37/2 - 53 - 70 - 129 (مطبوع).

(42) انظر : (نشرة بالمخطوطات التي اقتنتها الدار من سنة 1936 إلى 1955) لفؤاد سيد : 143/3.

(43) انظر فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية سبتمبر 1925 (42/2).

كل ساعة المفارق والرؤوس، حليت بها جيد (نظم الفصيح)، وأودغتها كل لفظ رائق ومعنى فسيح، وأوضحت فيها مشكلات حارت فيها العقول، وفتحت مقفلات ترددت فيها النقول. ولم أكن ممن ديدنه التقليد لأحد من البشر.

ولست بامعة في الرجال
أسائل هذا وذا ما الخ

ولكن أدور مع الحق حيث ما دار، وأنصف بالانصاف بتوفيق الله تعالى لأنه منار الفهم الذي عليه المدار. ولست ممن يرى لتقدم الزمان فضيلة أو يهتضم المتأخر في حقيرة أو جلييلة. ولكن أقول ما قال المبرد في كامله وهو القائل المحق: (ليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثانه (47) يهتضم المصيب، ولكن يُعْطَى كل ما يستحقه)، وكما قال الامام ابن مالك رضي الله عنه في الخطبة التسهيلية: (وإذا كانت العلوم منحاً إلهية ومذاهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين).

وقد حققت القول في كل مسألة من المسائل، ولم أكن ممن يشمله قول القائل:

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها
ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

ووشحت عطفه بوشاح الاعراب، فاستغنت ألفاظه عن الايضاح والاعراب. ولم أدع تركيباً إلا

6. نسخة المرحوم خير الدين الزركلي صاحب كتاب (الأعلام) (45) وتوجد حالياً في مكتبة جامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية تحت رقم (2991 ز). وهي تامة في جزئين كبيرين (الأول في 625 صفحة والثاني في 539 صفحة). وقع الفراغ من كتابتها سنة 1358 هـ بخط شرقي جميل هو خط محمد بن أحمد الوشلي اليمنى الذي استنسخها للشيخ محمد حبيب الله الشثيبي. أما الأصل الذي نسخت عنه فهو نسخة دار الكتب المصرية المذكورة أعلاه تحت رقم (15 ش).

هذه هي النسخ التي علمت أنها موجودة من كتاب ابن الطيب المتحدث عنه. وقد اعتمدت في إعداد هذه الدراسة على نسخة الزيدانية التي أرمز لها بحرف (ز) ونسخة المنوني التي أرمز لها بحرف (م) ونسخة السعودية التي أرمز لها بحرف (س).

الموضوع والبنية :

يتحدث ابن الطيب في مقدمة هذا الكتاب الذي تبلغ صفحاته حسب النسخة السعودية أربعاً وستين ومئة وألف (1164) صفحة، عن حافزه على التأليف وطريقته في الشرح وغير ذلك من الأغراض الواجب معرفتها فيقول :

« فهذه تحريات أبرزت إبريزها يد الأنظار، وتقريرات تُقر بسبك نُضارها لُد (46) النظار، ونفائس تطرب النفوس، وتتنافس في تحصيلها رؤوس النحارير، ونحارير الرؤوس، وترتقي أدراج دقائقها في

(44) نفسه.

(45) كنت قد وقتت في (الأعلام) للزركلي (67/7) على قوله: « وموظفة الفصيح لموظفة الفصيح — خ — مجلدان عندي ». فبحثت عن خزنة الزركلي حتى علمت أنها أصبحت ضمن محتويات مكتبة جامعة الرياض وأشكر الأستاذ محمد العربي الخطابي الذي ساعدني حتى حصلت على نسخة مصورة منها.

(46) كذا في (م) وفي (س) : (لدا) وفي (ز) بياض مكان الكلمة. واللذ جمع ألد وهو الخصم.

(47) كذا. وفي الكامل للمبرد 29/1 : « ولا لحدثان عهد ».

متحدثنا بنعم الله سبحانه غير مزهو ولا مُفَاخِر.»

ثم يقول :

« ولولا أن سألتني زمرة، أرى لكل منهم علي مُطَاع الإمرة، مع رجاء الثواب الجَم من الله سبحانه في الآخرة، وتأميل المجازاة منه تعالى بالدرجات الفاخرة، ما كنت لأجول في هذا المجال، أو أتجلى على منصة المقال. (...) وحيث تم المقصود على الإرادة المرجوة، ونبرز بحمد الله تعالى ومعونته إلى الفعل من القوة، سميت: (موظفة الفصيح لموطأة الفصيح).

(...)

وسنلم ان شاء الله بالتعريف بالناظم آخرا عند تسميته نفسه، ونطلع في سماء هذا الكتاب بدهر وشمسه. »

وقد أوردنا هذه النقول من المقدمة على طولها لأهميتها، فهي تقرر الأمور التالية :

1. أنه ألف الشرح تلبية لطلب زمرة من أصحابه أو تلاميذه.
2. أنه سماه (موظفة الفصيح لموطأة الفصيح) وفي هذا العنوان ما يوحي بنوع عمله في الكتاب، فهو أراد أن يوطيء به لمن يريد النظر في نظم ابن المرحل والتعمق في مسائله.
3. أنه لم يسبق بشرح آخر لهذه المنظومة، ولذلك فهو عند نفسه كالمبتكر والمخترع لا المقلد.
4. أنه معتز بعمله فلا يراه مقصرا عن أعمال السابقين المتقدمين من العلماء رغم تأخر زمانه، أما

أوضحت معناه، وبينت مبناه، ولم أخله من النصوص والشواهد. وربما قلدته من جوهر الآداب أسنى القلائد، لأنه قد يشير لحكم أدبية ويستدعي أمثالا عربية، فلم ببعض ما قيل في ذلك، ونقتصد في سلوك تلك المسالك. وإذا أنشد شاهدا يَبِّنا غريبه وأوضحنا بعيده وقريبه. وإذا ألم بأحد عينا كنيته واسمه، وبيننا في التعريف به حالته ولقبه ووَسْمه. وأوردنا ما له من الأخبار العجيبة وقصدنا من مستحسنها بديعه وعجيبه، إحماسا لسائمة العقول والأبصار، وتنشيطا لها بالانتقال من مضمار إلى مضمار. وإذا أعاد لفظا عدنا لتفسيره، ولم نكتف بما مر من تقريره. وننوع العبارات لتنوع الاعتبارات :

لابدع ان وافي بغيث صيب
وأق بكل شذا وعرف طيب
والحُصُّ بالحمد الكثير فإنه
نَجْرٌ (48) اشفاق محمد بن الطيب،

ويقول :

« مع كون هذا النظم لم تذلل صعابه، ولم تسلك فجاجه ولا شعابه. ولا طمته قبلي إنس ولا جان. ولا غاص غيري في لجة بجره لاستخراج ما فيه من اللؤلؤ والمرجان. بل بقي روضا أنفا، وتمنع لطالبيه نخوة وأنفا، ولأجل انفرادي بفض ختامه، وسبقي (49) لانتضاض عذرتي، وإزالة لثامه، كنت وإن سُبقت (50) كمن وضع، وغدوت وإن نقلت كمن اخترع، فأصبح لؤلؤه المكنون وجوهره الفاخر يقول من تقصر أسمعاه
كم ترك الأول للآخر

(48) النَّجْر كالنَّجَار : الأصل، ونحت الخشب (القاموس).
(49) لي (س) و (م) (سبقتي) ولي (ز) ياض، ولعل الصواب ما أتيتاه.
(50) المقصود أنه سبق بالنظم.

الشرح في حد ذاته فقد ذكر من خصائصه أنه اشتمل على :

1. شرح الشواهد الواردة في النظم.
2. إضافة شواهد جديدة ونصوص أدبية وأخبار وحكم وأمثال على سبيل التوسع والاحماض.
3. التعريف بالأعلام الواردة في النظم بذكر أخبار وأحوال من يتعرض له ابن المرحل (51).
4. تحقيق القول في المسائل اللغوية، وتحرير القضايا المشككة وتقرير رأيه فيها من غير تقليد ولا تبعية لأحد بعينه.

هذه هي أهم النواحي التي رأى ابن الطيب أنها تميز شرحه هذا. ونحن يمكن أن نفكك بناء هذا الكتاب الى وحدات تترابط فيما بينها وتتظم على النحو التالي :

1. فالكتاب في جملة يمكن اعتباره بنية كبرى أو نصا كبيرا له عنوانه الخاص وهو (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح) وداخل هذا البناء الكبير تنتظم مجموعة بنى صغيرة، فبنى أصغر منه.

2. والنص الكبير (أو النص في جملة) يتكون أساسا من ثلاثين بابا - حسب تبويب كتاب ثعلب وتبويب منظومة ابن المرحل - أي أنه يتألف من ثلاثين شرحا أو ثلاثين نصا، كل نص له عنوانه الخاص : (باب فعلت بفتح العين) - (باب فعلت بكسر العين) - (باب فعلت بغير ألف)... الخ. وكل نص أو شرح منها يمكن اعتباره اذن بنية متوسطة.

3. وابن الطيب لم يشرح كل باب جملة واحدة، ولكنه يجزئه إلى نصوص صغيرة، فيأخذ كل

بيت أو كل مجموعة من الأبيات ترتبط فيما بينها بفكرة و قضية لغوية معينة، ويشرحها على حدة. ومنها ينتقل إلى البيت أو إلى مجموعة الأبيات التالية، فيكون إذن قد جزأ الباب الواحد إلى نصوص صغيرة كل واحد منها له بداية ونهاية ووحدة موضوعية، بحيث يمكن لكل منها أن يأخذ عنوانا جزئيا مستقلا. ويمكن هذه الوحدة الصغيرة، بنية صغيرة.

4. ثم إنه يأخذ في النهاية كل وحدة من هذه الوحدات الصغيرة (أي كل نص صغير مكون من بيت أو مجموعة أبيات) فيحلله إلى مستويات ثلاثة حسب الترتيب التالي :

- أ. المستوى النحوي والصرفي.
- ب. المستوى المعجمي والدلالي.
- ج. المستوى البلاغي والعروضي.

فهو يبدأ شرحه بالمستوى الأول فيحلل النص الصغير (البيت أو مجموعة الأبيات) تحليلا نحويا صرفيا اشتقاقيا. ثم ينتقل إلى المستوى الثاني من التحليل فيفسر معاني الالفاظ، ويتعرض لخلافات اللغويين وأرائهم، ويناقشهم مستعينا بطائفة من الشواهد المتنوعة، ثم يختم بالمستوى الثالث فيذكر النواحي البلاغية والعروضية في شيء شديد من الاختصار والايجاز.

وإذا كان شرح ابن الطيب في جملة يقسم إلى هذه المجموعة من الشروح الجزئية، فإن هناك خيطا رفيعا يجمع بين هذه الأجزاء كلها - وهو أهم شيء في الكتاب - وهذا الربط هو البحث في مشكلة المستوى الصوابي للفظ العربي. وهذه النقطة الجوهرية في عمل ابن الطيب هي التي سنناقشها في الباب التالي.

(51) من الذين عرف بهم من الشعراء : العرجي (72/2) - السوأل (274/2) - عمران بن حطان (322/2) - حميد بن ثور (479/2) - رؤبة (481/2) - ومن اللغويين : ثعلب : 695 - الزجاج 7 - الفراء : 511/2 - ابن الأعرابي : 527/2 - معمر بن المثنى : 482/2. وعرف بكثير غيرهم.

شخصية مؤلفه :

احترامها وتقديرها. بل كان من الفئة التي لا تسلم بصحة علم العالم لمجرد تقدم زمانه، ولا تهتم المتأخر في حقيرة أو جليلة كما قال.

وهكذا وجدناه في (الموطئة) لا يفرغ من مناقشة واحد من هؤلاء المتقدمين المشهورين إلا ليدخل في مناقشة غيره، فلم يسلم من نقده وتعقيباته لا ثعلب ولا الأصمعي ولا أبو زيد الأنصاري ولا قطرب ولا ابن السكيت ولا الهروي، ولا ابن جنبي، ولا المرزوقي، ولا ابن هشام، ولا الجوهري، ولا المجد الفيروزبادي، ولا الفيومي ولا سواهم من علماء اللغة الذين تتردد أَسْمَاؤُهُمْ.

وليست من غايات بحثنا هذا أن نتبع آراء ابن الطيب في كل مسألة مسألة من القضايا العديدة التي ناقش فيها هؤلاء العلماء، فذلك أمر يطول لو أردنا الوقوف عنده. على أننا سنرى أمثلة منه في الباب التالي. ونكتفي في هذا الباب بذكر مثالين متنوعين ولا نهدف بهما سوى توضيح هذا الجانب البارز من شخصيته العلمية ومنهجه في هذا الكتاب.

المثال الأول : قال ابن المرحل في (باب فعلت بفتح العين) :

وقد غلت قدرك فهي تغلي
وقد غئت نفسك فهي تغئي

فقال ابن الطيب في شرحه :

« يقال : غلت القدر بفتح الغين المعجمة واللام تغلي كرمي غليا بالفتح وغليانا بالتحريك. هذه اللغة الفصحى وعليها اقتصر جماعة من المحققين ومنهم صاحب (القاموس) وابن القوطية والقطاع وبها ورد القرآن في قوله : (يغلي في البطون) (53) -

في (موطئة) ابن الطيب جانب في غاية من الأهمية وهو الحضور البارز لشخصية المؤلف العلمية. وهذا شيء لا يلحظ في هذا الكتاب دون غيره من كتبه الأخرى، بل هو أمر مشاهد في غير ما كتاب من مؤلفاته التي وصلت إلينا. فثقة الرجل بعلمه ونفسه جعلته لا يكتفي بنقل الآراء وتأليف بعضها إلى جانب بعض على ما يفعله المقلدون من أهل زمانه، وإنما ينقل ما سلمه نظره وعلمه لما أورده ثم عقب عليه، ودخل في مناقشات مع صاحبه مما جعل كتابه هذا ميدانا تجول فيه أفراس النظر وتبارى في ساحته الآراء على اختلافها، وجعل قارئه يحس بالمتعة العلمية وهو يتتبع ما يدور أمامه، ويقتنع أن ابن الطيب حين وصف نفسه في المقدمة — على نحو ما مر — بأن أنشد :

«ولت بامعة في الرجال

أسائل هذا وذا ما الخبير

ولكن أدور مع الحق حيث ما دار»، وحين قال : « ولم أكن ممن يشمله قول القائل :

يقولون أقوالا ولا يعلمونها

ولو قيل هاتوا حقاوا» (52)

إتاما كان قوله صادقا ووصفه لنفسه وصفا على الحقيقة. فالرجل لم يكن يترك أحدا من علماء اللغة الذين ترد أقوالهم في موضوع من الموضوعات التي يتطرق إليها إلا وناقشه وجال معه في حلبة علمه، منتقدا ومعقبا أحيانا، وساخرًا ضاحكا أحيانا أخرى. ولم يكن يمنعه من الملاحقة والمماحكة أن الواحد من هؤلاء اسم من الأسماء الشهيرة التي أطبق الجميع على

(52) البيت نسبة العاصمي في (اغلاة) ص 1 إلى أبنه أنس بن إلياس، وفيه : (يقولون أقوالا ولا يعرفونها).
(53) الدخان : الآية 45 ونماها : (إن شجرة الزقوم طعام الأنيم، كالمهل يغلي في البطون). وقد صحت في الأصل إلى : (تغلي بطونهم).

بما يشاء. هذا إذا حملنا كلام أبي الأسود على أنه أراد الألفاظ دون معانيها.

ويحتمل عندي أنه أراد مدلول هذه الألفاظ، وأنه أشار إلى أنه عالي الهمة رفيع القدر مصروف الوجهة إلى الأمور التي تعنيه، وليس هو ممن همته في بطنه كالطفيليين الذين تكون جل أحاديثهم على أنواع المآكل وأجناس المطاعم، وأنه لعلو همته، ونباهة قدره، ورفعة شأنه، وشرف نفسه ممن لا يقف في أبواب الناس ولا يتحلق على أفنية الأغنياء ولا يتذلل لهم رغبة في دنياهم. وهذا هو المناسب لهمم العرب وشيم ما تحلوا به من الأدب. وأما كونه لا يقول: (غليت) بل (غلت) ولا يقول (مغلق) بل (مغلق) فهو وإن كانت تحته جدوى فليست من المعاني التي تعتبرها الأعراب، ويلتفت إليها أهل الأدب (55).

فها أنت ذا تراه بعد أن استعرض أقوال وآراء العلماء المختلفة، ينفرد بشق طريق خاصة به بين تلك الطرق والمذاهب، ويوجه بيت أبي الأسود توجيها طريفا جديدا اقتضاه نظره وتأمله.

المثال الثاني : أن محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت 206 هـ) ألف كتابا سماه (المثلثات) (56) يعتبر أول كتاب في موضوعه. وقد جمع فيه طائفة قليلة (57) من الألفاظ التي تشترك في الخصائص التالية :
— الوزن الصرفي الواحد.

وحكى شارح الأصل : (54) غلي كرضي، وأنشد عليها قول أبي الأسود :

ولا أقول لقدر القوم قد غليت
ولا أقول لباب الدار مغسوق

وقال في المصباح بعد أن ذكر (غلي) وقال إنها الفصحى : (وفي لغة قليلة : غلي من باب تعب. قال:)

ولا أقول لقدر القوم قد غليت

(البيت).

فاستدل بالبيت كشارح الأصل لكون هذه اللغة قليلة. وقد ذكره الجوهري في صحاحه شاهدا على رد هذه اللغة ونفيها وكونها ليست لغة أصلا، وإنما هي لحن لأنه قال : غلت القدر تغلي، ولا يقال غليت. قال أبو الأسود الدؤلي :

ولا أقول لقدر القوم... الخ

أي فصيح لا يلحن.

قلت : ولا خفاء أنه يصلح شاهدا لكل منهما. لأن قوله : (لا أقول) يحتمل أنه أراد أنه فصيح لا يلحن لعراقته في العربية كما قال الجوهري، فيكون أراد نفي هذه اللغة وعدم إثباتها، ويحتمل أنه أراد لا ينطق إلا بالفصيح والأفصح لمهارته ومعرفته بألسنة العرب ولا يتكلم باللغة القليلة أو الرديئة ونحو ذلك. وهذا أقرب للفصاحة وأنسب باظهار الاقتدار على التعبير

(54) بقصد المرزوقي في شرحه لفصيح ثعلب.

(55) الموطنة : 747/1 — 748 م.

(56) طبع كتاب قطرب بتحقيق الدكتور رضا السويدي بالدار العربية للكتاب (ليبيا — تونس) سنة 1978.

(57) بلغ عدد المثلثات الواردة في كتاب قطرب الذي نشره السويدي (انظر الهامش السابق) 32 مثلة. وقد نظمها أبو القاسم عبد الوهاب بن الحسين الوراق المهلبى البهنسى (ت 685 هـ) في الأرجوزة الشهيرة التي أولها :

بامرلما بالفضب والمجر والتجنب

في جده واللعب حيك قد سرح بي

(وقد أعاد نشرها الأستاذ عبد الله كتون بالمدد الثالث من مجلة المناهل سنة 1975)، فكان عدد مثلثاتها ثلاثين (30) فقط. وحين شرح عبد العزيز المترني (ت 964 هـ) منظومة البهنسى في نظم آخر سماه (المرث لمشكل المثلث) (مطبوع بغاس سنة 1317 هـ في مجموع المتن الكبير)

— العدد الثابت من الحروف.

— الترتيب الثابت بين هذه الحروف.

وتختلف فيما بينها في المعنى وفي حركة فاء الكلمة. مثال ذلك :

العَمْر : (بالفتح) الماء الكثير.

العِمْر : (بالكسر) الحقد في الصدر.

العُمْر : (بالضم) الذي لم يجرب الأمور الضعيف في حالاته.

ولكن الذين جاؤوا بعده (58) صاروا يستدركون عليه أشياء جديدة، ويضيفون إلى لائحته الأولى الفاظا كثيرة حتى بلغ ذلك ذروته عند أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي (ت 521 هـ) (59) الذي جمع من المثلثات قدرا بلغ ثلاثا وثلاثين وثمان مئة (833) مثلثة موزعة على نوعين :

1. المثلثات المتفقة المعنى. 2. المثلثات المختلفة المعنى. وعدد ما جمعه من النوع الثاني وحده — وهو الذي اقتصر عليه قطرب — خمس وتسعون وست مئة (695) مثلثة، وهنا يجب أن نذكر ابن الطيب الشرقي لأنه ملأ كتاب (الموطئة) حديثا عن تقصير قطرب وإهماله لعدد كبير من الألفاظ المثلثة، مستفيدا مما كتبه العلماء في الموضوع ولا سيما كتاب

وهو الذي أوله :

حمدا لبارئ الأنام

ما نأح في دوح حمام

ثم الصلاة والسلام

على الرسول العربي

وجدنا هذه المثلثات قد وصلت إلى سبع وثلاثين. وقد ذكر الزميل الصديق الدكتور صلاح الفرطوسي في مقدمة تحقيق مثلث البطليوسي (97/1) أن مثلثات قطرب التي اطلع عليها بلغت ثلاثا ومئة مثلثة. والمسألة تحتاج إلى بحث مستفيض. (58) انظر قائمة المؤلفين في المثلثات في ص 48 من الجزء الأول من (المثلث لابن السيد البطليوسي) تحقيق ودراسة الدكتور صلاح الفرطوسي. بغداد — 1981.

(59) حقق كتابه الدكتور الفرطوسي (انظر الهامش السابق).

(60) كل هذه الألفاظ المستدركة مثلثة الفاء فهي بالفتح والكسر والضم مع اختلاف المعنى.

(61) انظر الموطئة على الترتيب : ج 2/120 — 122 — 123 — 128 — 132 — 136 — 142 — 144 — 144 — 151 — 154.

(62) نفسه : ج 2/161 — 163.

(63) نفسه : ج 2/200 — 205 — 207.

(64) ذكر ابن الطيب اقتداء بابن المرحل في منظومته أن الألفاظ من (الثلاث إلى العشر) كلها مثلثة الفاء باختلاف المعنى. فهي بالفتح مصادر وأسماء العدد وبالكسر : الأظماء وهي جمع ظمه وهو ما بين الشربتين. وذلك بأن تحبس الأبل عن الورد إلى غاية العدد. فالخمس أن تحبس إلى اليوم الخامس والتسع إلى التاسع وهكذا. وأما بالضم فتكون بمعنى الجزء من العدد. وقد ذكر البطليوسي الألفاظ من الربع إلى العشر ولم يذكر الثلث. (65) انظر الموطئة على الترتيب : ج 2/221 — 222.

البطليوسي. والحق أنه لم ينبه على قطرب وحده، بل نبه على غيره أيضا ممن كان يسميهم « أصحاب المثلثات ». ونبه على البطليوسي بدوره ولكن في مواضع قليلة. ولا يسمح مجال بحثنا أن نستعرض كل الألفاظ التي استدركها ابن الطيب، وإنما نعطي بعض الأمثلة.

فتي (باب المكسور أوله والمفتوح باختلاف المعنى) استدرك مثلثات الألفاظ التالية (60) :

الخيط — الخير — القسم — الصدق — السرب — الجزع — الحمل — القرن — الشكل — الفل — النعمة — الجنة — البضع — الثفال (61).

وفي (باب المضموم أوله) استدرك : (اللعبة — القلفة) (62) وكلاهما بتثليث الفاء مع اختلاف المعنى.

وفي (باب المضموم أوله والمفتوح باختلاف المعنى) استدرك (الأكلة — الموتة — الخلة) (63).

وفي (باب المكسور أوله والمضموم باختلاف المعنى) استدرك : (الثلاث — الربع — الخمس — السدس — السبع — الثمن — التسع — العشر — الخلف) (65).

منها : اصلاح المنطق لابن السكيت — تصحيح الفصيح لابن درستويه — أدب الكاتب لابن قتيبة — درة الخواص للحريري — ما تلحن فيه العلامة للجواليقي.

— المدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام — شرح الفصيح له. أما شرح المرزوقي (أحمد بن محمد ت 421 هـ) لفصيح ثعلب (67) فكان أهم مصادره في هذا النوع من الكتب. وكان في غالب الأحيان يشير إليه ب (شرح الأصل) وإلى صاحبه ب (شارح الأصل).

ومن نوادر هذا النوع (كتاب ابن حمزة) (أبي الهيثم كلاب بن حمزة العقيلي ت 207 هـ)، وهو أحيانا يصحف إلى (كتاب ابن حمزة) (68). وهذا الكتاب يسمى في المصادر التي تعرضت له كتاب (ما تلحن فيه العامة)، ويعد اليوم من الكتب المفقودة (69).

وتأتي بعد ذلك في الدرجة الثانية من حيث الأهمية قواميس اللغة العامة وشروحها التي نذكر منها: القاموس المحيط — الصحاح — المصباح — المحكم — العباب — مختصر الزبيدي — كفاية ابن الأجدابي — التهذيب للأزهري — الجمهرة لابن دريد — مجمل ابن فارس — أساس البلاغة للزمخشري — المنجد لكراع — حواشي ابن بري — شرح خطبة القاموس للمناوي... الخ.

ومن كتب اللغة والمفردات الأخرى نجد : مفردات الراغب — الغريين للهروي — المشارق لعباض — النهاية في غريب الحديث لابن الأثير — الفائق للزمخشري — النبات لأبي حنيفة — شفاء

فكل هذه المثلثات مستدركة على قطرب وغيره. وضمنها أربع مثلثات لم ترد عند البطليوسي وهي : (الفل — اللعبة — القلفة — الثلث). وقد ترد مثلثة عند البطليوسي ولكن بمعان مختلفة عما يذكره ابن الطيب، مثال ذلك مثلثة (الثفال) (66).

فمن هذين المثالين يستطيع المرء أن يتبين مدى حرص ابن الطيب على اثبات شخصيته العلمية وحضورها القوي في شرحه، وهذا ما سوف يزداد وضوحاً وتأكداً عند دراستنا للموضوع الذي نعتبره أهم ما يمكن بحثه في هذا الكتاب وهو قضية اللفظ ومستواه الصوابي.

كلمة عن مصادره :

تتميز كتابات ابن الطيب — في جملة ما تتميز به — بكثرة ما يتردد فيها من أسماء الكتب على اختلافها وأسماء المؤلفين على تنوعهم، وهذا يعكس ثقافة الرجل المشاركة ومحاولته استغلال أكبر قدر ممكن من هذه الثقافة في كل موضوع يتناوله. وما كتاب (الموطئة) سوى نموذج من هذه الكتابات. ويصعب علينا أن نضع لائحة إحصائية نهائية بأسماء المصادر والمراجع التي تخللت هذا الكتاب نظراً لحاله التي هو عليها الآن من كونه مخطوطاً كبيراً لم يطبع بعد، ولكننا نستطيع أن نقدم لحة موجزة عنها اعتماداً على ما استفدناه من قراءتنا فنقول :

اعتمد ابن الطيب في شرحه لمنظومة ابن المرحل بالدرجة الأولى على مجموعة من كتب التصويب اللغوي وبعض شروح (الفصيح) وتذكر

(66) عند البطليوسي (389/1) : الثفال بالفتح : المرأة العظيمة انكفل الثقبلة عن التصرف، وبالكسر : الأشياء الرزية والبيضم : لفة في الثقبيل، وهي عند ابن الطيب : الثفال : بالفتح : البطيء من كل شيء، وبالكسر : ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه. وبالضم : الحجر الأسفل من الرحى.

(67) منه نسخة مخطوطة ذكرها بروكلمان : 211/2 وقال انها في كوبرلي رقم : 1323.

(68) انظر على سبيل المثال : الموطئة : 67/1 م.

(69) انظر : لحن العامة وانتصرون النفوي : ص : 78.

الفروع) لأبي اسحاق ابراهيم بن محمد الشيرازي الشافعي (ت 476 هـ) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (73). وابن الطيب ينقل عن شرح هبة الله في مواضع متفرقة.

ومنها (غريب البخاري) للقرظي. هكذا يذكره ابن الطيب (74). وإذا كان القرظي المقصود هو أبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني صاحب (الجامع في اللغة) (ت 412 هـ)، فنحن لا نعلم له تأليفا في الموضوع حسب مترجميه (75).

ومن مصادره التي يكثر النقل منها في هذا الشرح — كما في شرحه للحاشية — (الجامع في اللغة) لأبي عبد الله القرظي المذكور وهو كتاب يعد اليوم مفقودا.

ومنها (كتاب الفرق) لأبي زيد (سعيد بن أوس الأنصاري) (ت 215 هـ). وقد ذكره ابن النديم في ترجمته.

ومنها كتاب (الغرائب) لابن رشيق القيرواني. وقد ذكره حاجي خليفة (76). ولعله هو كتاب (الشذوذ في اللغة) الذي أشار إليه السيوطي في الوعاة (77) وقال عنه: « والشذوذ في اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها ».

— أما كتب النحو والصرف فنذكر منها:

كتب ابن مالك كالألفية وشروحه وحواشيها التي منها حواشي الأزهري والشنواني ويس، والكافية، والتسهيل بشروحه (كشرح ابن هشام)،

الغليل للخفاجي — الأضداد لابن الأنباري — المقصور والممدود له — فعلت وأفعلت لقطرب — أفعال السرقسطي — أفعال ابن القطاع — أفعال ابن القوطية — أفعل من كذا للقالبي — مثلث قطرب — مثلث البطليوسي — مثلثات ابن مالك — الخصائص لابن جني — فقه اللغة للثعالبي — الصحاحي لابن فارس — الزهر للسيوطي — نوادر أبي زيد — نوادر القالي — أمالي ثعلب... الخ.

ومن مصادره اللغوية النادرة: (خلاصة المحكم) وهو كتاب يتردد بكثرة في هذا الشرح كما في شرح القاموس دون أن يعزى لمؤلفه، ومعلوم أن لمحكم ابن سيده الأندلسي عددا من التلخيصات (70) لعدد من الأشخاص وكلها مفقودة، ولا ندري أيها كان مرجع ابن الطيب.

ومنها كتاب (المستدرک في اللغة) للزيدي، وهو من النوادر، إذ لا توجد منه في أيامنا هذه سوى نسخة فريدة يصعب الاعتماد عليها محفوظة بخزانة القرويين (71).

ومنها (شرح غريب ابن الحاجب) لابن عبد السلام (محمد بن عبد السلام الأموي المكي من القرن السابع). هكذا يسميه ابن الطيب. وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية بعنوان (لغات مختصر ابن الحاجب) (72).

ومنها (شرح ألفاظ المذهب) لاسماعيل بن هبة الله الموصلی (المعروف بابن باطيش) من القرن السابع. وهو شرح لغريب ألفاظ (المذهب في

(70) انظر (المعجم العربي بالأندلس) لكتابه: ص 57.

(71) رقم هذه النسخة القروية 64. وانظر ما كتبه حولها في (المعجم العربي بالأندلس) ص 51 وما بعدها.

(72) انظر (المعجم العربي) للدكتور حسين نصار: 66/1.

(73) انظر كشف الظنون: 1912/2.

(74) انظر على سبيل المثال: الموطئة في: 187 م.

(75) يراجع بصفة خاصة كتاب: (القرظي القيرواني — حياته وآثاره) للمنجمي الكمي — تونس 1968.

(76) كشف الظنون: 1444/2.

(77) بغية الوعاة: 504/1.

ولامية الأفعال بشروحها (كشرح المكلاقي).

ومن كتب ابن هشام : التوضيح، والمغني بشروحه التي منها شرح الدماميني، وقطر الندى، وغيرها.

ومنها : الارتشاف لأبي حيان، والمقرب لابن عصفور، وشرح الرضي للكافية الحاجبية، والافتراح للسيوطي، ونتائج الفكر للسهيلي (في علل النحو) (78)، والكتاب لسيويه مع بعض شروحه وخاصة شرح الصفار (قاسم بن علي البطلبيوسي، من القرن السابع) وشرح ابن أبي الربيع السبتي المغربي.

ومن نوادر هذا النوع كتاب لابن الحاج (أحمد بن محمد الأزدي الاشبيلي ت 647 هـ) على المقرب لابن عصفور يسميه ابن الطيب : (شرح المقرب لابن الحاج) وعند السيوطي (79) أن لابن الحاج المذكور « إیرادات على المقرب ».

ومن كتب البلاغة والعروض : نذكر : مختصر السعد، وشرح الخزرجية للزموري (المغربي) سوى كتب أخرى عديدة.

ومن كتب الأدب المختلفة نذكر : الكامل للمبرد — العقد لابن عبد ربه — نقد الشعر لقدماء — العمدة لابن رشيق — مقامات الحريري —

وشرحها للشريشي — الروض الأنف للسهيلي — نفع الطيب للمقري.

ومن الأشعار نذكر : شرح الحماسة للمرزوقي — أشعار النابغة وزهير وحسان، وشرح السقط، واللامية للطغرائي وشرح الكعبية لابن هشام وشرح الحمزية لابن حجر وبعض شروح رسالة ابن زيدون.

ومن مراجعه الأدبية المغربية نذكر على الخصوص كتاب أبي علي اليوسي المسمى : (زهر الأكم في الأمثال والحكم) (80)، وشرح شواهد البخاري لابن غازي وهو من النوادر.

بعد هذه الطائفة من المصادر والمراجع تأتي في المرتبة الثالثة من الأهمية الكتب الدينية من تفاسير ومجاميع الحديث ودواوين الأصول وفروع الفقه، وكتب المعارف العامة من طب وتاريخ ورحلات وفهارس وغيرها.

ذلك هو كتاب (الموطئة) في اطاره التاريخي، وفي موضوعه وبنيته ومنهجه ومخطوطاته ومصادره وشخصية مؤلفه من خلاله، وهي أمور كان من الضروري أن نلم بها قبل الخوض في قضية المستوى الصوابي، وهي القضية الأساس في هذا الكتاب، وهي موضوعه الحيوي.

(78) كشف الظنون : 1924/2.

(79) بغية الرعاة : 359/1.

(80) طبعه محققا الدكتور محمد حجي والدكتور عماد الأخضر في ثلاثة مجلدات (الدار البيضاء — 1981).